﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ
بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ
وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [النّور: 11]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ابـتـلاءُ الأئـمَّـةِ أنوارٌ للأُمَّةِ

هذه الآياتُ العشر – التي نزلَتْ في براءة أمِّ المؤمنين عائشةَ ﵂ – مرتبطةٌ تمامًا بالسّياقَيْن العامِّ والخاصِّ اللَّذَيْن جاءت فيهما، فمِن حيثُ ارتباطُها بالسّياق العامِّ، فإنَّ السّورةَ الكريمة تناولتْ أثرَ البناء الأخلاقيِّ والتَّربية الإيمانيَّة، القائمَين على الفضيلة في تحقيق التَّمكينِ للمجتمع المسلم في الأرض، من خلال التَّركيزِ على الفضائل التي تحفظ المجتمعَ المسلم من التَّفرُّق والانقسام، وإنَّ أهمَّ ما يُشوِّه هذه الفضيلةَ هو ما يتعلَّق بجريمة الزِّنى، وما تستجرُّه من مصائبَ وويلاتٍ؛ فجاءتْ هذه الآياتُ العشر لتُقدِّم أنموذجًا لمعالجة صدمةٍ أخلاقيَّةٍ عظيمة أصابت المجتمع المسلم، وكادت تُمزِّق وحدته، وأن تشوِّهَ ركن الفضيلة فيه، من خلال بيت النُّبوَّة الأوَّل وما لحقَ به من أذًى.

ارتـبـاطُ الآيـاتِ بالسّياقِ الخاصِّ

وأمّا ارتباطُها بالسّياق الخاصِّ؛ فقد جاءت بعد أحكام الزُّناة والقاذفين والمُلاعِنين؛ لأنَّ الأمر فيها متَّصلٌ تمامَ الاتِّصال بهذه الأحكام، من خلال تقديم أنموذجٍ عمليٍّ يعرفونه جيِّدًا لأثر هذا الطَّعن والرَّمي في الأعراض في بيت القائدِ والأسوة لهم جميعًا[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِٱلْإِفْكِ﴾: (أفك) أَصْلٌ واحِدٌ، يَدُلُّ على قَلْبِ الشَّيْءِ وصَرْفِهِ

(1) انظر الحديث في البخاريّ، الجامع الصّحيح: كتاب الشّهادات، باب تعديل النِّساء بعضهنّ بعضًا، حديث رقم: (2518).

عَنْ جِهَتِهِ، يُقالُ: أُفِكَ الشَّيْءُ، وأَفِكَ الرَّجُلُ: كَذَبَ، والإِفْكُ الكَذِبُ، وأَفَكْتُ الرَّجُلَ عَنِ الشَّيْءِ؛ إذا صَرَفْتَهُ عَنْهُ[1]، والمعنى المحوريُّ لهذه المادَّة اللُّغويَّة هو تغيُّرُ حالِ الشَّيء جملةً من وجهٍ إلى وجهٍ: كالرّياح المذكورة، والأرضُ الموصوفة تغيِّرُ حالها؛ إذ لم يُصِبْها المطرُ بعد اعتياد إصابتها أو توقُّع ذلك مثل غيرها، وكانقلاب البلدة، ومنه أَفَكَهُ عن الشَّيء: صَرَفه: قَلَبَهُ، وغيَّر اتجاهه إليه ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ [الذاريات: 9]، والإِفْكُ: الكذبُ والباطل؛ إذ هو كلامٌ قُلِب عن وجهه[2]، والمُرادُ بالإفك في الآية: ما افتراه المنافقون على أمِّ المؤمنين عائشةَ ﵂.

2) ﴿عُصْبَةٌ﴾: (عصب) أصلٌ يَدُلُّ على رَبْطِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ، مُسْتَطيلًا أَوْ مُسْتَديرًا، ثُمَّ يُفَرِّعُ ذَلِكَ فُروعًا، وكُلُّهُ راجِعٌ إِلَى قياسٍ واحِدٍ، مِنْ ذَلِكَ العَصَبُ، وهيَ أَطْنابُ المَفاصِلِ الَّتي تُلائِمُ بَيْنَها، ولَيْسَ بِالعَقَبِ، ولَحْمٌ عَصِبٌ: صُلْبٌ مُكْتَنِزٌ كَثيرُ العَصَبِ، والعَصْبُ: الطَّيُّ الشَّديدُ، ورَجُلٌ مَعْصوبُ الخَلْقِ، كَأَنَّما لويَ لَيًّا[3]، والعُصْبَةُ: جماعةٌ مُتَعَصِّبَةٌ مُتعاضدة، قال تعالى: ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ﴾ [القصص: 76]، ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: 14]، أي: جماعةٌ مجتمعةُ الكلام متعاضدة[4]، وهو ذاتُهُ المعنى المُراد في الآية الكريمة.

3) ﴿ٱمْرِئٍ﴾: (مرأ)، يُقالُ: امرُؤٌ وامرَآنِ، وقَوْمٌ امرِئٍ، وامرَأَةٌ تَأْنيثُ امرِئٍ، والمُروَّةُ: كَمالُ الرُّجوليَّةِ، وهيَ مَهْموزَةٌ مُشَدَّدَةٌ، ولا يُبْنَى مِنْهُ فِعْلٌ[5]، ومنه المَرْءُ بالفتح: الإنسانُ؛ إذ هو نسل له تصرُّفٌ ونفع وتعاون، وأُنثاه مرأة، وهو أيضًا امرُؤ، وهي امرَأة، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤﴾ [عبس: 34][6].

4) ﴿ٱلْإِثْمِ﴾: (أثم) أصلٌ يَدُلُّ على أَصْلٍ واحِدٍ، وهوَ البُطْءُ والتَّأَخُّرُ، ناقَةٌ آثِمَةٌ: مُتَأَخِّرَةٌ، والإِثْمُ مُشْتَقٌّ مِنْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ ذا الإِثْمِ بَطيءٌ عَنِ الخَيْرِ مُتَأَخِّرٌ عَنْهُ، وأَثِمَ فُلانٌ: وقَعَ في الإِثْمِ، فإذا تَحَرَّجَ وكَفَّ؛ قيلَ: تَأَثَّمَ[7]، والإثم والآثامُ: اسم للأفعال المبطِّئة عن الثواب، وجمعه: آثامٌ، ولتضمُّنه لمعنى البطء[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أفك).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (أفك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عصب).
(4) الراغب، المفردات: (عصب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مرء).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مرأ).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أثم).
(8) الراغب، المفردات: (أثم).

5) ﴿كِبْرَهُۥ﴾: (كبر) أَصْلٌ يَدُلُّ على خِلافِ الصِّغَرِ، يُقالُ: هوَ كَبيرٌ، وكُبارٌ، وكُبّارٌ، والكِبْرُ: مُعْظَمُ الأَمرِ، ويَقولونَ: كِبْرُ سياسَةِ القَوْمِ في المالِ، فأَمّا الكُبْرُ بِضَمِّ الكافِ؛ فهوَ القُعْدُدُ، يُقالُ: الوَلاءُ لِلْكُبْرِ، يُرادُ به أَقْعَدُ القَوْمِ في النَّسَبِ، وهوَ الأَقْرَبُ إِلَى الأَبِ الأَكْبَرِ، والكِبَرُ: الهَرَمُ، والكِبْرُ: العَظَمَةُ، وكَذَلِكَ الكِبْرِياءُ، وعَلَتْ فُلانًا كَبْرَةٌ؛ إِذا كَبِرَ، ويُقالُ: أَكْبَرْتُ الشَّيْءَ: اسْتَعْظَمتهُ[1]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ﴾ إشارةٌ إلى مَنْ أوقع حديثَ الإفك، وتنبيهٌ على أنَّ كلَّ مَنْ سنَّ سُنَّة قبيحةً يصير مُقتدًى به، فذنبهُ أكبر[2].

❁ المَعْنى الإِجْماليُّ:

في ظاهر الإفكِ مصيبةٌ، وفي داخلِه خيرٌ للمؤمنين

إنَّ الذين اختلقوا البهتانَ في حقِّ عائشةَ أمِّ المؤمنين، وأذاعوه، هم جماعةٌ وشرذمةٌ ينتسبون إليكم بأُخوَّة الإسلام، فكيف رضوا بإذاعته؟ لا تظنّوا هذا الافتراءَ شرًّا لكم، بل هو خيرٌ عظيمٌ لكم، لنيلِكم الثَّواب الجزيلَ بالصَّبر عليه، وظهورِ كرامتكم وكرامة زوجكم المصون على ربِّكم، بإنزال ما فيه تعظيمُ شأنِكم، وتشديد الوعيد لمَنْ تكلَّمَ بما أَحْزَنكم، لكلِّ امرئٍ من الذين جاؤوا بالإفك جزاءَ ما اكتسب من الإثم بقدر ما خاض فيه، سواءٌ أكان ذلك اختلاقًا ورضًا أم تَرْديدًا وإذاعة، والذي تحمَّل معظمه، فقام بأكبر حظٍّ من إعلانه؛ له عذاب عظيمٌ في الدُّنيا والآخرة[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصلِ آياتِ الإفكِ بتركِ العطفِ:

بيانُ أثرِ رمي المؤمنين بالزِّنى دونَ دليلٍ

فُصِلَت آياتُ الإفكِ عمّا قبلها من الآيات دون عطفٍ عليها، "وهذا استئنافٌ ابتدائيٌّ؛ فإنَّ هذه الآياتِ العشرَ إلى قوله تعالى:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).
(2) الراغب، المُفردات: (كبر).
(3) مجموعة من المؤلّفين، التَّفسير الوسيط: 6/ 1376.

﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [النور: 21] نزلت في زمنٍ بعيد عن زمن نزول الآيات التي من أوَّل هذه السّورة"[1].

نكتةُ تتابعِ المؤكِّداتِ في صدرِ الآيةِ:

من شأنِ كثرةِ المؤكِّداتِ في الآيةِ أن تتوافقَ مع مُقتضَى الحالِ

استُهِلَّت هذه الآيةُ بعددٍ من المؤكِّدات، وهي: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسميَّة، وذُكر المُسنَد إليه مرَّتيْن: مرَّةً على أنَّه اسم ﴿إِنَّ﴾، ومرَّة بكونه الضَّميرَ الفاعل في جملة صلة الموصول ﴿جَآءُو﴾، ولتزاحُم هذه المؤكِّدات أثرٌ في محو آثار هذه الفتنة التي ألَمَّت ببيت الأمَّة الصَّغير والكبير على حدٍّ سواء، وأيًّا كان خبر ﴿إِنَّ﴾؛ فإنَّها تُؤكِّد لهم بألّا يقلقوا، ولا يغتمّوا بما حصل، فإنَّ الله تعالى يتولَّى الأمر كلَّه.

إنزالُ غيرِ المُنكِرِ منزلةَ المُنكِرِ

ويمكن أن يُقال: إنَّه إذا كان خبر ﴿إِنَّ﴾ قوله: ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾؛ فإنَّ التَّأكيد يكون قد خرج عن الظّاهر بإنزال غيرِ المنكر منزلةَ المنكر؛ لأنَّهم يعلمون حقيقة أنَّهم عصبةٌ منهم، ولكنَّ هذا الخبر المؤكَّد يحمل في طيّاته عتابًا ضمنيًّا لهم، بأنَّه كان الأحرى بهم ألّا يخوضوا فيما خاضوا فيه.

التَّعجيبُ مِن أن يجيءَ الإفكُ مِن عصبةٍ منهم

ووراءَ التَّأكيد أيضًا معنى التَّعجيب مِن أن يجيء الإفكُ مِن عصبة منهم، فالألصقُ به أن يجيء مِن غيرهم، لا منهم، وظلمُ ذوي القُربى لا يكاد يُصدَّقُ؛ ولهذا يكون محتاجًا خبرُهُ إلى تحقيقٍ وتوكيدٍ، وهو أشدُّ مضاضةً على النَّفس مِن وقْعِ الحُسامِ المُهنَّدِ.

دلالةُ الاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ وصلتِهِ:

تركُ التَّعريفِ بالمتكلِّمين بالإفك جاء سترًا وزجرًا لهم

الاسمُ الموصول مُبهمٌ يفتقر إلى جملة صلةِ الموصول تزيل إبهامَهُ، كما يفتقر إلى ضميرٍ عائدٍ ظاهرٍ أو مُضمرٍ يعود عليه في جملة صلة الموصول، فالتَّعبيرُ بالاسم الموصول هنا أفادَ وقوعَ التَّعريف على مرحلتَيْن، وذلك تشويقٌ لما يأتي بعده ممّا يُزيل إبهامَه، فضلًا عن إفادته

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 169.

معانيَ الذَّمِّ والتَّقريع للمُتكلِّمين به والنّاقلين له من غير تثبُّتٍ ورَويَّة، فذِكْرُ الاسم الموصول أعطى إبهامًا للآفكين، فلم يذكرهم بوصفٍ أو تعريفٍ لهم؛ لأنَّ إبهامهم هو الأصل هنا، وجاءت جملةُ صلة الموصول فعلًا ماضيًا للدَّلالة على أنَّهم نقلوه بمجرَّد أن سمعوه دون تفكُّر.

معنى الباءِ في: ﴿بِٱلْإِفْكِ﴾:

الباء: إمّا أن تكون للتَّعدية والنَّقل للفعل (جاء)، وإمّا أن تكون للملابسة والملاصقة، فإنَّ مجيئهم كان ملتبسًا بهذا الإفك وملاصقًا لهم، ويمكن أن يكون قد ضمَّن الفعل ﴿جَآءُو﴾ الفعل (خاضوا)، أو (تكلّموا) بالإفك، فيفيد التَّضمين حينئذٍ قوَّة الفعلَيْن معًا، على معنى أنَّهم خاضوا بالحديث حتّى جاؤوا به إلى بيت النُّبوَّة.

الباءُ لا تنفكُّ عن معنى الإلصاقِ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿بِٱلْإِفْكِ﴾ مادَّةً وصيغةً:

تدور معاني (الإفك) على تحوُّل الشَّيء من حالٍ إلى حال، والإفكُ هو كلامٌ قُلِب عن وجهه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾، ولعلَّ ما يختصُّ باسم الإفك هو ما تكون فيه فرصةٌ أو ظرف يمكن للمنافق أو المبطل أن يستغلَّهُ في قلب الأمر إلى ما يريدُهُ، وغرضُ مجيءِ هذه المادَّة اللُّغويَّة بيانُ أنَّهم حوَّلوا الأمور عن ظواهرها، وقلبوا الحقَّ باطلًا، وأنَّهم بذلك كأنَّهم جاؤوا بالإفك كلِّه، وهو أشدُّ الكذب، ولم يتركوا منه شيئًا، وأنَّ مَن رمَى أمَّ المؤمنين عائشة - ﵂ - بسوءٍ، فقد قلب الأمرَ على أحسن وجوهه إلى أقبح أقفائه؛ كنايةً عن عظمَةِ مقامها الشَّريف[1].

التَّعبيرُ بالإفكِ تناسَبَ مع قلْبِهم حقائقَ الأمورِ

معنى (أل) في ﴿بِٱلْإِفْكِ﴾:

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ الإفك هنا أفاد العهديَّة الذِّهنيَّة، أي: ما جرى مع أمِّ المؤمنين ﵂ من اتِّهامها بصفوانَ، ولكن يمكن حملُ

الإساءةُ إلى القدوةِ ليس بعدها إساءةٌ

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/ 239.

التَّعريف على الجنسيَّة الاستغراقيَّة على معنى: أنَّهم جاؤوا بكلِّ صنوف الإفك حين نقلوا هذه الإشاعاتِ، وفي ذلك مزيدٌ من التَّوبيخ لهم، يقول الآلوسيُّ: والمُراد به ما أفكت به الصَّديقةُ أنَّ اللّام فيه للعهد، وجوِّز حمله على الجنسِ، فقيل: يُفيد القصرَ، كأنَّه لا إفكَ إلّا ذلك الإفك[1]، فيكون في ذلك زيادةُ تبشيعٍ للإفك؛ لأنَّه في حق أمِّ المؤمنين، وهي مِن أحقِّ الناسِ بالمدحة؛ لِما كانت عليه مِن الحصانة والشَّرف والعفَّة والكرم[2].

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾:

في إسنادِ المجيءِ إلى الإفكِ – والإفكُ لا يُجاء به – مجازٌ عقليٌّ حُكميٌّ، علاقته اللُّزوميَّةُ، فإنَّ الإخبارَ به يلزمه المجيءُ، ويمكن إجراءُ المجاز اللُّغويِّ على طريقة الاستعارة المكنيَّة، بأن شبَّهَ الخبر الكاذب بالمسافر الغائب الذي من شأنه أن يجيءَ، فحذف المشبَّه به، وترك شيئًا من لوازمه، وهو المجيءُ، وأسنده إلى المُشبَّه، وهو الإفكُ على سبيل الاستعارة المكنيَّة التَّخييليَّة[3].

في إسناد المجيءِ إلى الإفكِ تجوُّزٌ عقليٌّ أو لغويٌّ

نكتةُ تنكير ﴿عُصْبَةٌ﴾:

التَّنكيرُ في أصله يدلُّ على غير محدَّدٍ في جنسه، فمعنى التَّعميم مرادٌ هنا؛ لأنَّ القرآن الكريم أعرضَ عن تعيين مَنْ تكلَّم منهم به، حفظًا لوحدة المجتمع المسلم من أن تتقطَّع أواصره بسبب هذا الخبر الكاذب، ويمكن أن يندرجَ مع هذا الغرض غرضٌ آخر، وهو التَّحقير والتَّقليل من شأن هذه العصبةِ التي خاضت في عِرض أمِّ المؤمنين، وزوج النَّبيِّ ﷺ، وابنة الصِّديق في آنٍ واحدٍ.

من عظمته تعالى سترُ العاصينَ من عبادِهِ

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿عُصْبَةٌ﴾:

قال ابن عطيَّة: "وقوله: ﴿عُصْبَةٌ﴾ رفعٌ على البدل من الضَّمير

تتنوَّعُ الإعراباتُ بحسب تنوُّعِ المعاني

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 308.
(2) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 5/ 239.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 170.

في ﴿جَآءُو﴾، وخبر إنَّ في قوله: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾، وهذا أنسق في المعنى وأكثرُ فائدةً من أن يكون ﴿عُصْبَةٌ﴾ خبر إنَّ"[1]، وعقَّب الآلوسيُّ على هذا الرَّأي بقوله: ولا يخفى أنَّه تكلَّف، والفائدةُ في الإخبار: التَّسليةُ بأنَّ الجائين بذلك الإفك فرقةٌ متعصِّبة متعاونة، وذلك من أمارات كونه إفكًا لا أصل له[2]، لذا فالأَوْلى أن تكون ﴿عُصْبَةٌ﴾ خبرًا لـ ﴿إِنَّ﴾، ويكون الخبرُ مفيدًا للتَّعجيب من فعلهم مع أنَّهم عُصبةٌ من القوم، وهذا أشدُّ في الإنكار كما قال طَرَفَة:

وظُلمُ ذوي القُرْبى أشَدُّ مَضاضَةً***على المرءِ من وقْعِ الحُسامِ المُهنَّدِ[3]

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿عُصْبَةٌ﴾:

مجيءُ عصبةٍ بالإفكِ ليس كمثْلِهِ مجيءُ غيرِهِم به

في ذِكْر لفظة ﴿عُصْبَةٌ﴾ تحقيرٌ لهم ولقولهم، أي: لا يَعْبَأْ بقولهم في جانب تزكيةِ جميعِ الأمَّةِ لِمَن رموها بالإفك[4]، فالمجيءُ بهذه اللَّفظة التي تحمل في طيّاتها إشارةً إلى أنَّ هذه الفئةَ تربطهم وشائجُ ومصالحُ عصبيَّة خاصَّة، تلتقي على إعلان الحرب على بيت النُّبوَّة الأوَّل، وتحمل معاني التَّفرقة المجتمعيَّة، وأشارت لفظةُ العصبة إلى ما في نفوس الآفكين من عصبيَّة جاهليَّة، وتلفت هذه المادةُ إلى ما نتج عن الإفك مِن شدَّة إيلام السيدة عائشةَ ومَن يتبعها، فالذين جاؤوا بالإفك؛ لكونهم عصبةً يحمي بعضُهم بعضًا، فيشتدُّ أمرُهم؛ لأنَّ مدارَ مادة: (عصب) على الشدَّة، ثمَّ مع ذلك منكم.

معنى (من) ونكتةُ وصفِ العُصبةِ بأنَّها ﴿مِّنكُمْ﴾:

الأصلُ أنَّ الشَّرَّ مِن القريبِ مُستبعَدٌ

نعت الآية على المسلمين كون العصبةِ فئةً منهم، فـ(من) هنا تبعيضيَّة، والمعنى: أنَّهم بعضٌ منكم لا من غيركم لا من الكفّار،

(1) ابن عطيَّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 169.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 9/ 310.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 171، وطرفة بن العبد، ديوان طرفة بن العبد، ص: 27.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 171.

يقول ابن عاشور: "ووصفُ العصبةِ بكونهم منهم يدلُّ على أنَّهم من المسلمين، وفي ذلك تعريضٌ بهم بأنَّهم حادوا عن خُلق الإسلام، حيث تصدّوا لأذى المسلمين"(1).

نكتةُ فصل قولِهِ: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾:

فُصِلَت هذه الجملةُ عن سابقتها ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۚ﴾؛ إمّا لكمال انقطاعها عنها بسبب اختلافِهما في الخبر والإنشاء؛ لأنَّ هذه الجملةَ طلبيَّةٌ والسّابقة خبريَّةٌ، وإمّا أن يكون سببُ الفصل بينهما أنَّ هذه الجملةَ جاءتِ استئنافًا بيانيًّا جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ: فما موقفنا من هذه العصبةِ؟ أو ما ردُّ الله عليهم؟ والحملُ على الاستئناف البياني هو الأَوْلى؛ لدلالته على عنايته تعالى بشأن أولئك الكُمَّل.

إنَّما يعتني اللهُ بالمتقين المُحسنين من عبادِهِ

غرضُ النَّهي في قولِهِ: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾:

تعتمدُ دلالة النَّهي في قوله: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾ على حسب المُخاطَب بهذا النَّهي، فإن كان الخطاب فيها للمؤمنين عامَّةً كما هو الظّاهر؛ فإنَّ النَّهي هو للتَّوجيه والإرشاد، وقد ذَكَر الرّازيُّ أنَّ الخطاب هو للمقذوفين على وجه الخصوص، ويكون النَّهي عندئذٍ للتَّسرية عليهم، وذَكَر لهذه الخيريَّة وجوهًا، منها: استوجابُهم ثوابَ الصَّبرِ، وظهورُ الإفك بدلًا من كمونه، وبيانُ فضلهم حيث نزل القرآن ببراءتهم، وكذلك "صَيْرورَتُها بِحال تَعَلُّقِ الكفرِ والإيمانِ بِقَدْحِها ومَدْحِها، فإنَّ الله تَعالَى لَمّا نَصَّ على كون تلك الواقِعَةِ إِفْكًا، وبالغ في شرْحه، فكلُّ مَنْ يشكُّ فيه كان كافرًا قَطْعًا"(2).

خطابُ اللهِ تعالى للمظلومين من شأنِهِ التخفيفُ عنهم

نكتةُ تنكيرِ ﴿شَرّٗا﴾:

جاء تنكيرُ لفظ ﴿شَرّٗا﴾ في قوله: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ﴾، فأفاد

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 171.
(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 338.

التَّعظيمَ على معنى: لا تحسبوه شرًّا عظيمًا، ووراء هذا مِن المعنى أنَّه شرٌّ حقير، يؤول إلى لا شيءٍ.

معنى اللّام في ﴿لَّكُمۡ﴾:

إنْ أصابَ المؤمنَ شرٌّ؛ صبَر

أفادت اللّام في قوله تعالى: ﴿شَرّٗا لَّكُمۡ﴾ معنى التَّخصيص على معنى: (شرًّا خاصًّا بكم)، ويمكن مع ذلك إفادتُها معنى العاقبة؛ أيْ: شرًّا يحصل لكم بعد ذلك، ويمكن أن تكونَ للتَّعليل على معنى: (شرًّا لأجلكم).

نكتةُ وصفِ الشَّرِّ بأنَّه ﴿لَّكُمۡ﴾:

جبرُ خواطرِ المُضارّين والتَّسرية عنهم

في قوله تعالى: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۡ﴾ جاءت شبهُ الجملة ﴿لَّكُمۡ﴾ من الجارِّ والمجرور متعلِّقةً بـ﴿شَرّٗا﴾، أي: شرًّا كائنًا لكم، وهي في محلِّ نصبٍ نعتٌ للشَّرِّ، وفائدةُ تخصيصِهِ ووصفه بأنَّه لهم أنَّ الأمر ابتداءً متعلِّقٌ بهم من أجل جبر خواطرِهم والتَّسرية عنهم.

فائدةُ الإضرابِ بقوله: ﴿بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾:

في طيّات المحنةِ العظيمةِ تحصلُ المنحةُ العظيمة

من المعلوم أنَّ نفيه ﷺ للإفك بأن يكون شرًّا لهم يتضمَّن أنَّ فيه الخيرَ لهم، لكنَّه تعالى جاء بـ ﴿بَلۡ﴾ التي أفادت الإضرابَ ليؤكِّد هذه الخيريَّة؛ ليزيل ما علقَ في النُّفوس من شوائب هذه الحادثة، "وحَقيقَةُ الخَيْرِ ما زادَ نَفْعُهُ على ضُرِّهِ، وحَقيقَةُ الشَّرِّ ما زادَ ضُرُّهُ على نَفْعِهِ، وأَنَّ خَيْرًا لا شَرَّ فيه هوَ الجَنَّةُ، وشَرًّا لا خَيْرَ فيه هوَ جَهَنَّمُ، ولِهَذا صارَ البَلاءُ النّازِلُ على الأَوْلياءِ خَيْرًا؛ لِأَنَّ ضَرَرَهُ مِنَ الأَلَمِ قَليلٌ في الدُّنْيا، وخَيْرُهُ - وهوَ الثَّوابُ - كَثيرٌ في الآخِرَةِ، فنَبَّهَ اللّه تَعالَى عائِشَةَ ومَنْ ماثَلَها - مِمَّنْ نالَهُ هَمٌّ مِنْ هَذا الحَديثِ - أَنَّهُ ما أَصابَهُم مِنْهُ شَرٌّ، بَلْ هوَ خَيْرٌ"[1]، فأفاد الإضراب التَّأكيدَ على إبطال أنَّه شرٌّ لهم، بل على العكس فيه منافع كثيرة.

(1) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 3/ 363.

نكتةُ العدولِ في: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾:

في المغايرة لفتٌ إلى أنَّ الخيرَ الكامنَ في الشَّرِّ عظيمٌ

يقول ابن عاشور: "وعدل عن أنْ يَعْطِفَ (خَيْرًا) على ﴿شَرًّا﴾ بِحَرْفِ ﴿بَلْ﴾، فيُقالُ: بَلْ خَيْرًا لَكُم؛ إيثارًا لِلْجُملَةِ الاِسْمِيَّةِ الدّالَّةِ على الثَّباتِ والدَّوام"[1]، وفي المغايرة بينهما إشارةٌ إلى أنَّ الخيرَ الذي يكمُن في الشَّرِّ عظيمٌ جدًّا، حتى كأنَّهم لا يُدركون كُنْهَهُ ولا نِهايته؛ لأنَّ القرآن لو عطفَ فقال: (بل خيرًا لكم)؛ لكان المعنى: بل احسبوه خيرًا لكم، ثم أيُّ فوزٍ في خير يكون دائمًا مستمرًّا؟ كأنَّ في الاسميَّة إشعارًا بديمومة الخير إلى يوم القيامة، فيكون لهم في هذا اليوم خيرٌ عظيمٌ بسبب رميهم بهذا الإفك.

نكتةُ تنكير ﴿خَيْرٌ﴾:

في قوله ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أفاد تنكيرُ ﴿خَيْرٌ﴾ التَّعظيمَ، على معنى: لا تحسبوه شرًّا عظيمًا، بل هو خيرٌ عظيمٌ، والقرينةُ أنَّ الذين قُذِفوا بتهمة الإفك خيرُ هذه الأمَّة وأعظمها.

معنى اللّام في ﴿لَّكُمْ﴾:

لكلِّ بلادٍ أهلُهُ، فيكونُ ثوابُهُ خاصًّا بهم وحدهم

في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أفادت اللّام في ﴿لَّكُمْ﴾ معنى التَّخصيصِ على معنى: (خيرٌ خاصٌّ بكم)، ويمكن مع ذلك إفادتُها معنى العاقبةِ، أيْ: (خيرٌ يحصل لكم بعد ذلك)، ويمكن أن تكونَ للتَّعليل على معنى: (خيرٌ حاصلٌ لأجلكم).

نكتةُ وصفِ الخيرِ بأنَّه ﴿لَّكُمْ﴾:

كلُّ ثوابٍ يُراعَى فيه حالُ المُثابِ

شبهُ الجملة من الجارِّ والمجرور ﴿لَّكُمْ﴾ هنا مُتعلِّقة بـ﴿خَيْرٌ﴾، وهي في محلِّ رفعٍ نعتُ الخير، أيْ: بل هو خيرٌ دائمٌ أو كائنٌ لكم، وفائدة تخصيصِهِ ووصفه بأنَّه لهم أنَّ الأمرَ ابتداءً متعلِّقٌ بهم من أجل جبر خواطرِهم والتَّسرية عنهم، ولذلك تكرَّرت ﴿لَّكُمْ﴾ مع الخير، بعد أن جاءت مع الشَّرِّ، لتدفع عن النُّفوس ظنَّها بأنَّه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 172.

كان شرًّا لهم، بل على عكس ذلك، فهو خيرٌ لهم، فهي إشارة إلى استوائهما في علم الله.

بلاغةُ الطِّباقِ بين الشَّرِّ والخيرِ:

في قول المولى سبحانه: ﴿لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ﴾ تقابلٌ بين لفظي الخير والشَّرِّ، وهو طباقُ إيجابٍ، والجمع بينهما يُحرِّك نفسَ المتلقي، لأن يتأمَّلَ كلُّ طرف في نورِ الآخر، فيتمكَّنَ المعنى في النفس، وتفقهَ النفس ما لم تكن تفقهُهُ مِن غير ذلك التأمُّل، ففي الطباق إحسانٌ إلى المعنى والمتلقّي جميعًا، والنَّفسُ الإنسانيَّة لا تملك في مِثْل هذا المقام مقام الاتهامات والشُّبَه إلّا التَّفكيرَ.

في التَّقابُلِ دعوةٌ قويَّةٌ إلى مزيدِ التَّدبُّرِ

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾:

هذه الجملةُ إمّا أن تكون استئنافًا ابتدائيًّا؛ لأنَّها جاءتْ لتتناول عقوبةَ الآفكين بعد بيان حقيقة الإفك، وإمّا أن تكون استئنافًا بيانيًّا، فكأنَّ سؤالًا قد نشأ في الذِّهن بعد إخباره ﷺ بأنَّ ما جرى لم يكن شرًّا لهم، بل هو خير، فيتساءل القارئ بعدها عن مصير أولئك العصبةِ الذين جاؤوا بهذا الإفك العظيم، فجاءتِ الآية لتبيِّنَ ما لحقهم، وجعلها البقاعي تعليلًا في المعنى لما قبلها؛ لأنَّه لا شفاءَ لغيظ الإنسان أعظمُ من انتصار الملك الديَّان له[1].

قد يكونُ عقابُ المظلومِ شفاءً للظّالمِ

معنى اللّامِ في ﴿لِكُلِّ﴾:

في قول المولى سبحانه: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ نجد أنَّ اللّامَ في ﴿لِكُلِّ﴾ هي لام الاستحقاق؛ لأنَّهم استحقّوه، ويمكن أن تفيدَ مع ذلك معنى التَّخصيص، فما سيُقرَّرُ من عقوبة هي خاصَّةٌ بهم.

أقبحُ ما في الإثمِ أن يكونَ عن عَمدٍ

دلالةُ التَّعبيرِ بالعمومِ في قولِهِ: ﴿لِكُلِّ﴾:

أفاد التَّعبيرُ بـ﴿لِكُلِّ﴾ هنا استغراقَهم جميعًا بهذا الحكم، وأنَّه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 240.

قد يكونُ ظلامُ المعصيةِ بقَدْرِ شيوعِها

لا يُستثنى منه أحدٌ، بحيثُ يشمل الحُكمُ المُفاد بخبر (كل) كلَّ مَنْ شارك في جريمة الإفك مطلقَ مشاركةٍ، وفي هذا مزيدٌ من التَّهديد والوعيد لهم.

نكتةُ تنكيرِ ﴿ٱمۡرِيٕ﴾:

تحقيرُ شأنِ الذين رموا أمَّ المؤمنين بالإفكِ

أفاد التَّنكيرُ للفظ ﴿ٱمۡرِيٕ﴾ في قوله سبحانه: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ التَّعميمَ؛ ليشمل كلَّ واحدٍ منهم، فضلًا عن إفادتها معنى التَّحقير، وفي ذلك حطٌّ من شأن هؤلاء الذين رموا أمَّ المؤمنين بالإفك.

معنى (من) في قوله: ﴿مِّنۡهُم﴾:

في قوله ﷻ: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ أفادت (من) في قوله: ﴿مِّنۡهُم﴾ معنى الابتداء، ويمكن أن تكونَ بيانيَّةً على معنى: منهم ومن غيرِهم.

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملةِ الخبريَّةِ ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُم﴾:

أفادَ تقديمُ المُسنَدِ التَّخصيصَ أو تعجيل ما يسوءُ

شبهُ الجملةِ هنا في محلِّ رفعٍ خبرٌ مُقدَّمٌ لقوله: ﴿مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾، وفائدة تقديم شبه الجملة الخبريَّة على المبتدأ تخصيصُهم بهذا العقاب، أو تعجيل ما يسوؤهم سماعُهُ، وللتَّعجيب من صدور تلك التُّهمة منهم؛ لأنَّهم مِن الذين آذَوْهم بها.

معنى ﴿مَّا﴾ في قوله: ﴿مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾:

أيُّ إثمٍ ارتكبوه في حقِّ أمِّ المؤمنين ﵂؟

في قوله تعالى: ﴿مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ نجد أنَّ ﴿مَّا﴾ هنا اسم موصول مبنيٌّ على السُّكون في محلِّ رفع مبتدأ مُؤخَّر، و﴿ٱكۡتَسَبَ﴾: صلتُهُ[1]، ويمكن أن تكونَ ﴿مَّا﴾ مصدريَّةً، والتَّعبير بـ﴿مَّا﴾ هنا يُفيد العمومَ ليستغرق كلَّ ما يُكسَبُ من إثمٍ، فضلًا عن إفادة الاسم الموصول هنا معاني الذَّمِّ والتَّشهير بهم.

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 569.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿ٱكۡتَسَبَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الزّيادةُ في المبنى تدلُّ على الزّيادةِ في المعنى

يُقال: (الكَسْبُ) فيما أخذَهُ الرَّجل لنفسه ولغيره، ولهذا قد يتعدَّى إلى مفعولَيْن، فيُقال: كَسَبْتُ فلانًا كذا، والاكْتِسابُ لا يُقال إلّا فيما استفدته لنفسك، فكلُّ اكْتِسابٍ كسبٌ، وليس كلُّ كَسْبٍ اكتسابًا[1]، فالتَّعبيرُ بالاكتساب هنا دون الكسْبِ أنَّهم جلبوا ذلك لأنفسِهم بأنفسِهم، و﴿ٱكۡتَسَبَ﴾: مُسْتَعْمَلٌ في المَآثِم ونَحْوِها؛ لِأَنَّها تَدُلُّ على اعْتِمالٍ وقَصْدٍ، فهوَ أَبْلَغُ في التَّرْتيبِ، و(كَسَبَ) مُسْتَعْمَلٌ في الخَيْرِ؛ لِأَنَّ حُصولَهُ مُغْنٍ عَنِ الدَّلالَةِ على اعْتِمالٍ فيه، وقد يُسْتَعْمَلُ (كَسَبَ) في الوَجْهَيْنِ[2]، وأفاد التَّعبيرُ بالفعل الماضي أنَّ الإثمَ قد لحقَهُ ابتداءً لحظةَ أن خاضوا في حديث الإفكِ.

معنى ﴿مِنَ﴾ و(أل) في قولِهِ: ﴿مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾:

اللـهُ ﷻ هو العدلُ، وعدلُه رحمةٌ

﴿مِنَ﴾ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ هنا ابتدائيَّةٌ، ويمكن أن تكون سببيَّةً بمعنى: بسبب الإثم، وأفاد تعريفُ الإثمِ الاستغراقَ؛ ليعمَّ سائرَ أصناف الآثام والذُّنوب، ويمكن أن يكون التَّعريفُ للعهدِ على اعتبار أنَّهُ إثمُ الخوض في الإفك دونَ غيره.

نكتةُ المجازِ في لفظ ﴿ٱلۡإِثۡمِۚ﴾:

الذَّنبُ العظيمُ يَصْحَبُ عقابَهُ مفاجأةٌ

يمكن أن يكونَ المُرادُ من الإثمِ هنا ظاهرَهُ بما لحق كلَّ واحدٍ منهم من الوِزْر؛ لخوضهم في حديث الإفك، ويمكن أن يُراد من الإثم الإفكُ نفسه، على اعتبار أنَّه سببٌ مُفضٍ إليه، فأطلقَ المُسبِّبَ، وأراد السَّببَ، والحملُ على المجاز المُرسل أَوْلى؛ لقوله تعالى في لحاقه: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾؛ فالسّياق لتقريرِ العقاب والعذاب، وما عليه التَّنزيل أبلغُ في إيلامِهم وإهانتِهم؛ وشفاء صدور القومِ المؤمنين.

(1) الرّاغب، المُفردات: (كسب).

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 20.

بلاغةُ المجازِ بالحذفِ في قولِه: ﴿مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾:

استحضارُ الإثمِ في سياقِ العقابِ إهانةٌ

هناك كلامٌ محذوفٌ في الجملة دلَّ عليه نظمها، يقول الرّازي: "وَمَعْلومٌ أَنَّ نَفْسَ ما اكْتَسَبوهُ لا يَكونُ عُقوبَةً، فالمُرادُ لَهُم جَزاءُ ما اكْتَسَبوهُ مِنَ العِقابِ في الآخِرَةِ والمَذَمَّةِ في الدُّنْيا، والمَعْنَى: أَنَّ قَدْرَ العِقابِ يَكونُ مِثْلَ قَدْرِ الخَوْضِ"[1]، ومَن أدرك حقيقةَ السّياق، واستحضر جلالتَهُ؛ ذاقَ كيف تتفادَى النَّفسُ مِن إظهار هذا المحذوف، وكيف تأنَسُ إلى إضمارِه، وعرَف كيف تذهبُ الملاحة إن هو رامَ التكلُّمَ به.

بلاغةُ الاستعارةِ ﴿مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾:

شبَّهتِ الآيةُ الوقوعَ في الإثمِ بالكسبِ

في قولِه تعالى: ﴿مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾ يمكن أن يكونَ تقديرُ الكلام في الآية أنَّها شبَّهتِ الإثمَ بالشَّيء الذي من شأنه أن يُكتسبَ كالمال وغيره، بجامع تحقُّق آثار كلٍّ منهما، فحذف المُشبَّهَ به، وترك شيئًا من لوازمه، وهو الاكتساب، وأسندَهُ إلى الإثم على سبيل الاستعارة المكنيَّةِ التَّخييليَّة.

معنى الواو في: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾:

لا يستوي الأصلُ في الجريمةِ والفرعُ فيها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ عاطفةٌ على قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾؛ وهو من عطف الخاصِّ على العامِّ للإشادة به، فمَنْ تولَّى أعظمَ هذا الإفك؛ استحقَّ أن يُفرَدَ بذِكْر عقابه مع أنَّه داخلٌ في عموم قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم﴾؛ فهذا العطفُ يقتضي تنزيل تشبيه التَّغاير العنوانيِّ في الصِّفات منزلة التَّغاير الذّاتيِّ، ويمكن أن تكون الواو استئنافيَّةً شرعت في الإخبار عن حالة مستقلَّةٍ بالإثم[2].

عقابُ العظيمِ عظيمٌ، والتَّوبةُ عن العظيمِ عظيمةٌ

الظّاهرُ أن يتقدَّم معنى قوله: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ﴾، على معنى

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 23/ 338.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 569.

قوله: ﴿لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ﴾؛ للتَّهويل والتَّفخيم مِن شأنِ الإثم الَّذي ارتكبوه جميعًا، فما ارتكبه الأدنى عظيمٌ في بابه في حقِّ أُمِّ المؤمنين، وقد قرَّر القرآنُ عقابه بصورة ذاتِ جلالٍ وفخامةٍ، فجعلت العقابَ نفْسَ الإثم؛ للدَّلالة على أنَّه إثمٌ مِن شأنه ألّا يُنْسَى؛ لأنَّه عظيمٌ، وعقابُ العظيم عظيمٌ، وأنَّ التَّوبة عن العظيم عظيمةٌ، فكيف يكون ما ارتكبه الأعلى رئيسهم؟ وقد صوَّر ذلك ترتيبُ المعنيَيْن في التنزيل الكريم، ولو حدث عكسُ الترتيب؛ لكان فيه استهانةٌ ما بما اكتسبه غيرُ الرئيس الذي تولّى كِبْرَهُ منهم مِن الإثم، وذلك لا يتوافق وشأنَ أمِّ المؤمنين ﷺ وقدرَها.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ وصلتِهِ:

في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾، جاء التَّعبيرُ بالاسم الموصول لمزيدٍ من الذَّمِّ والتَّشهير بزعيم المنافقين الذي تولّى إشعالَ فتيلِ الفتنة، وجاء الفعلُ الماضي في حيِّز الصِّلة للإشارة إلى أنَّه تولّى هذا الأمرَ فور سماعِهِ، أو فور وصول عائشةَ وصفوان ﷺ إلى المدينة.

مـن عـقـاب كـبـارِ المجرمين فـضـحُـهُـم على كلِّ ملأٍ

بلاغةُ توجيهِ القراءات في ﴿كِبۡرَهُۥ﴾:

قرأ الجمهورُ ﴿كِبۡرَهُۥ﴾ بكسر الكاف، وقرأ يعقوبُ بضمِّ الكاف ﴿كُبۡرَهُۥ﴾[1]، وهُما مَصْدَرانِ لِـ: كَبُرَ الشَّيْءُ، أَيْ: عَظُمَ، لَكِنَّ المُسْتَعْمَلَ في السِّنِّ: الضَّمُّ، وقيلَ: بِالضَّمِّ: مُعْظَمُهُ، وبِالكَسْرِ: البَداءَةُ بِالإِفْكِ، وقيلَ: الإِثْمُ[2]، ولا تعارضَ حقيقيًّا بين القراءتَيْن المتواترتَيْن، فإنَّ من تولّى معظمَهُ حريٌّ به أن يتولّى إثمَهُ.

عـلـى كـبـيـرِ الأفّـاكـين مِـثْـلُ أوزارِهم جميعًا

عودُ الضَّميرِ في ﴿كِبۡرَهُۥ﴾:

على كلتا القراءتَيْن فإنَّ الضَّمير المضاف إليه إنَّما يعودُ إلى

(1) قمحاوي، آل نصر، طلائع البِشْر، ص: 351.
(2) ابن الجزريّ، النَّشر: 2/ 331.

مِثْلُ هذا الإفكِ ما كان ينبغي في مِثْلِ أمِّ المؤمنين عائشة

الإفك، وربَّما لو عبَّر عنه بلفظِهِ؛ لبُعد المسافة بين موضعِهِ ثانيًا وموضعِه في صدر السورة؛ لأفهمَ عِظَمَهُ، وعِظَمَ جزائِهِ، ولكنَّ القرآنَ عبَّر عنه بالضَّميرِ على الأصل؛ إشعارًا بأنَّه في مِثْلِ أمِّ المؤمنين عائشةَ - رضي الله عنها - ما كان ينبغي أن يكونَ.

معنى (من) في ﴿مِنْهُمْ﴾، وعودُ الضَّمير:

جميعُ مَن خاضوا في أمِّ المؤمنين متساوون في أصلِ الإثمِ

في قولِه سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ﴾ جاءت (من) تبعيضيَّةً، يقولُ ابن عاشور: "وضَميرُ ﴿مِنْهُمْ﴾ عائدٌ إلَى الَّذينَ جاؤوا بالإفْكِ، وقيلَ: الَّذي تَوَلَّى كِبْرَهُ حَسّانُ بن ثابتٍ، والوَعيدُ بِأَنَّ لَهُ عَذابًا عَظيمًا يَقْتَضي أَنَّهُ عَبْدُ اللّه بْنُ أُبَيٍّ بن سَلولٍ، وفيه إنْباءٌ بِأَنَّهُ يَموتُ على الكُفْرِ، فيُعَذَّبُ العَذابَ العَظيمَ في الآخِرَةِ، وهوَ عَذابُ الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النّارِ، وأَمّا بَقيَّةُ العُصْبَةِ؛ فلَهُم مِنَ الإثْمِ بِمِقْدارِ ذَنْبِهم، وفيه إيماءٌ بِأَنَّ اللّه يَتوبُ عليهم إنْ تابوا، كَما هوَ الشَّأْنُ في هَذا الدَّين[1].

معنى اللّام في ﴿لَهُۥ﴾:

إفادةُ استحقاقِهِ للعذابِ أو تخصيصه له

في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أفادت اللّام في ﴿لَهُۥ﴾ معنى الاستحقاق؛ لأنَّه يستحقُّ هذا العذابَ العظيم، ويمكن أن تكون للتَّخصيص على معنى أنَّ هذا العذابَ العظيم مخصَّصٌ له، ووراء هذا مِن المعنى التعمُّدُ والإصرارُ والإقبالُ بالكليَّة على الإثم، فقولُه: ﴿لَهُۥ﴾ أبلغُ من (ذو)؛ لأنَّه أعلى منه معنًى، وذلك اللّائقُ بحال كبير القاذفين.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة الخبريَّةِ ﴿لَهُۥ﴾:

أفادَ تقديمُ شبه الجملة الخبريَّة ﴿لَهُۥ﴾ في قوله: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ معنى تعجيلِ المضرَّةِ لهذا المتوعَّد، ويمكن أن يكونَ سببُ تقديمها التَّخصيصَ، والمعنيان لا يتعاندان، وهما في السّياق مقصودان.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 173.

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَذَابٌ﴾:

قـد لا يُـدْرَكُ الشَّيءُ مِن شدَّةِ عَظَمَتِه

تنكيرُ المبتدأ المؤخَّر ﴿عَذَابٌ﴾ في قول الله تعالى: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أفاد التَّعظيم، أي: عذابٌ لا يُدرَكُ كُنْهُهُ، ويمكن أن يكونَ التَّنكيرُ للنَّوعية، على معنى أنَّه ليس كأيِّ عذابٍ تعرفونه، ومآلُ هذا الوجهِ معنى التعظيم أيضًا، يقول ابن عاشور: "وَصْفُ العَذابِ بِالعَظيمِ دَليلٌ على أَنَّ تَنْكيرَ عَذابٍ لِلنَّوْعيَّةِ، وذَلِكَ اهْتِمامٌ بِالتَّنْصيصِ على عِظَمِهِ؛ لِأَنَّ التَّنْكيرَ وإِنْ كانَ صالِحًا لِلدَّلالَةِ على التَّعْظيمِ إِلّا أَنَّهُ لَيْسَ بِنَصٍّ فيه"[1].

فائدةُ وصفِ العذاب بالعِظَم:

الـجـزاءُ مـرآةٌ صادقةٌ للعملِ

في وصف العذاب المُنكَّر بالعِظَم في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مزيدٌ من التَّفخيم والتَّعظيم لشأنه؛ ليتناسبَ مع هذا الإثم الذي تولّاه صاحبه، وفي هذا مزيدُ وعيدٍ له، والعذابُ العظيم هو عذابُ الآخرة، وممّا لا يخفى أنَّ بناء ﴿عَظِيمٌ﴾ على زنة (فعيل) يدلُّ على ثبوت هذه الصِّفة وملازمتها للعذاب، ولا يجوز أنْ يكون ﴿عَظِيمٌ﴾ تأكيدًا لِما يُفيدُه التَّنكير من التَّعظيم؛ لأنَّ دلالةَ التَّنْكير على التَّعْظيم غيرُ وضعيَّةٍ، والمَدلولات غيرُ الوضعيَّة يُستغنَى عنها؛ إذا وردَ ما يدلُّ عليها وضعًا، فلا يُعدُّ تأكيدًا[2]، وعظمُ العذابِ يُفْهِم عِظَمَ العمل الذي استوجبَ ذلك العذابَ، فالجزاءاتُ صورٌ صادقة للأعمال.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

كـلُّ لـفـظـةٍ من هـذه الألـفـاظ تـشـتـرك مـع أختـهـا بـمـعـانٍ وتختصُّ بمعانٍ أخرى

الكذب والافتراء والبهتان والإفك:

الكذبُ هو عدمُ مطابقة الخبر للواقع، أو لاعتقاد المُخبر لهما على خلافٍ في ذلك، والافتراءُ: أخصُّ منه؛ لأنَّه الكذبُ في حقٍّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 258.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 258.

الآخر بما لا يرتضيه، بخلاف الكذب، فإنَّه قد يكون في حقِّ المتكلِّم نفسه، ولذا يُقال لِمَنْ قال: فعلتُ كذا، ولم أفعل كذا مع عدم صدقه في ذلك: هو كاذبٌ، ولا يُقال: هو مُفترٍ، وأيضًا قد يحسُن الكذب على بعض الوجوه، كالكذب في الحرب، وإصلاح ذات البَيْن، وعدَّة الزوجة، كما وردت به الرِّواية، بخلاف الافتراء.

وأمّا البهتانُ؛ فهو الكذبُ الذي يواجَهُ به صاحبُهُ على وجه المكابرةِ له، وأمّا الفرقُ بين الكذب والإفك؛ فهو أنَّ الكذبَ: اسمٌ موضوعٌ للخبر الذي لا مُخبِر له على ما هو به، وسواء أكان الكذب فاحشَ القبحِ أم غير فاحشِ القبحِ، والإفك: هو الكذبُ الفاحش القبح مثل الكذب على الله ورسوله أو على القرآن، ومثل قذف المحصنة، وغير ذلك مما يُفحش قُبحُهُ، وأمّا البهتانُ؛ فهو مواجهةُ الإنسان بما لم يحبَّهُ، وقد بهته[1].

الإثم والذَّنب والكلمات المقاربة:

الفروقُ قد تكون من ناحية قوَّة دلالتِها، أو امتزاج دلالاتها مع معانٍ أخرى

سَمَّى القرآنُ الكريم هذه الذنوبَ والمعاصي بأسماءَ عديدةٍ في مواضع مختلفة، ممّا يؤكِّد أنَّ لكلِّ لفظةٍ منها خصوصيَّتها الَّتي تميّزها عن اللَّفظة الأخرى الَّتي تشاركها في بعض السِّمات، فقد استعمل القرآن ألفاظ: الإثم، والسيّئة، والجُرم، والخطيئة، والوزر...، وغيرها من الألفاظ، وإنَّ تتبُّع هذه الألفاظِ ودراسة الفروق المعجميَّة والسّياقيَّة بينها يكشف عن رافدٍ مهمٍّ من روافد الإعجاز.

فالذَّنبُ في أصل اللُّغة: هو الجُرم[2]، وأُخذ من ذَنَب الدّابَّةِ، فالذَّنَب هو الأخذ بذَنَب الشَّيء، ويُستعمل في كلِّ فعلٍ يُستَوخمُ

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: فروق رقم: (1063) و(1806).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ص: 389.

عقباه اعتبارًا بذَنَب الشَّيء، ولما يحصلُ من عاقبته[1]، فالمعصية إذًا تُسمّى ذَنْبًا؛ تبعًا لما تجرُّه أذنابها على العاصي، ولأنَّ البحثَ في دلالة كلِّ لفظةٍ من الألفاظ السابقة يطول، فنشيرُ إلى بعض محاولات صاحب كتاب (الفروق اللُّغويَّة)، وهو يُفرِّق بين بعض هذه الألفاظ:

فالفرق عنده بين الإثم والخطيئة: أنَّ الخطيئةَ قد تكون من غير تعمُّدٍ، ولا يكون الإثم إلّا تعمُّدًا، والفرق بين الإثم والذَّنب: أنَّ الإثمَ في أصل اللُّغة: التَّقصير[2]، والذَّنب فيها وفي غيرها، والفرق بين الذَّنب والجُرم: أنَّ الذَّنب ما يتبعه الذَّمُّ، وهو القبيح من الفعل، والجُرْم ما ينقطع به عن الواجب، والفرق بين الوِزْر والذَّنب: أنَّ الوِزْرَ يُفيد إثقال صاحبه[3]، والإثم يُفيد المؤاخذة والعقوبة.

بناءً على ما تقدَّم فإنَّ صاحب (الفروق)، قد حاول جاهدًا أن يفرِّق بين هذه الألفاظ الَّتي يُظنُّ ترادفها من خلال استقراء المعجمات وموارِدها في القرآن، وليس ما قدَّمه قطعيًّا في نتائجه، ولكنَّه يتقدَّم خطوةً إلى الأمام في هذا الاتجاه، فالفروقُ بين هذه الألفاظ قد تكون من ناحية قوَّتها في الدّلالة، أو من حيثُ امتزاجُ دلالاتها مع معانٍ أخرى.

ليس ما قدَّمه العسكريُّ في هذه الفروقِ قطعيًّا

الطّائفة والعصبة:

الطّائفة في الأصل: الجماعةُ التي من شأنها الطَّوف في البلاد للسَّفر، ويجوز أن يكون أصلُها الجماعةَ التي تستوي بها حلقة يُطاف عليها، ثمَّ كثر ذلك حتى سُمّيت كلُّ جماعةٍ طائفةً[4]، وأمّا

العُصْبَةُ قد تكون أكبرَ، فضلًا عن أنَّ أفرادَها تجمعُهم عصبيَّةٌ ما

(1) الرّاغب، المُفردات، ص: 137.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 261.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة: 261 - 262.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 334.

العُصبة؛ فالعَشَرَة وما فوقها، وقيل: من العشرة إلى الأربعين، وهي في العربية: الجماعةُ من الفرسان[1]، وعلى هذا فالعُصبة قد تكون أكبرَ من الطّائفة، فضلًا عن أنَّ أفرادها تجمعهم عصبيَّةٌ ما، أو لُحمةٌ قويَّةٌ يتعاضدون لأجلها؛ لذلك جاءت في موضعَيْن في القرآن من أصل أربعة على لسان إخوة يوسف، منها: ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ [يوسف: 8].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 107.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»